من دمشق .... إلى بغداد

للأستاذ على الطنطاوى

لما جاوزنا (أبا الشامات) وأصحرنا ، ونظرت بين يدىّ وعن يمينى وعن شمالى ، فلم أجد إلا الصحراء الصامتة الرهيبة الوحشة ، ووجدت دمشق التى أحببتها ولقيت فيها من يحبّنى ، وألفتها وتركت فى كل بقعة منها قطعة من حياتى وطائفة من ذكرياتى قد اختفت وراء الأفق ، وتضاءل (قاسيونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علوىّ يلوح فى السماء له وميض ولمعان ، أحسست بلوعة الفراق تخفق قلبي خفقاناً شديداً :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى ... بليلى العامرية أو يُراح
قطاة غرّها شرك فباتت ... تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم ، أعرفه من نفسى كلما سافرت سفراً بعيداً — على كثرة ما أسافر وأبتعد — شعور من يجد الموت ويبصره بعينه ! ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم فى المكان الذى تألفه ، وترى الناس الذين تحبّهم ، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها ، أو نغمة تسمعها ، أو بقعة تحلّها ؟ وهل يحيا المرء إلا فى الأمكنة والوجوه ، وبالذكريات والآمال ؟ وهل الموت إلا أن ينبتر مما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ، ويقدم على بلد مجهول وحياة غريبة عنه لا عهد له بها ولا نبأ عنده منها ؟ أو ليس للانسان حياة ظاهرة فى قيامه وقعوده وطعامه وشرابه وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة فى أفكاره وذكرياته وآماله وآلامه وميوله وعواطفه ؟ أو ليست حياته الباطنة هى الأصل وهى الأساس ، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة فى جوف الأرض المختفية فى بطن الثرى ، فاذا انقطع المرء عن عادته ، وابتعد عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هى بُتّت من أرضها ، وقطعت من أصلها ، وفصلت عن جذرها . وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالاخراج من الديار ، وأجزل ثواب المهاجرين فى سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا لأن الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ... فان (تعدّدت الألوان فالموت واحد) !

وازدحمت فى نفسى صور حياتى فى دمشق ، وحبّبت إلىّ أضعاف ما كنت أحبّها ، ومرّت أمامى صور إخوتى وأهلى وإخوانى ، وذكرت سهراتنا البيتية ، ومجالسنا الأدبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التى تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامى ، والمدرسة التجارية ، تكريماً لى قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، وأفيض فيها علىّ من النعوت ما ليس فىّ ولا أستحق الأقل منه ... وذكرت من دمشق كلّ حبيب إلىّ جميل فى عينى ، فازددت بها تعلقاً ، ووددت لو أنى أبيت فلم أذهب ولم أتغرّب

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدقت بنا ، وصرنا فى قبضتها لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هذه السيارات الفخمة التى كانت تملأ الشارع بطوله وعرضه ، وكانت تعد وهى فى دمشق شيئاً عظيما ، أهون على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت فى أرجائها فلم تعدُ تعدّ شيئاً . وكان قد بلغ منى الحزن ، وحزّت فى نفسى لوعة الفراق ، فأغمضت عينىّ ورجعت إلى نفسى ، حتى إذا استروحت فتحتهما وجعلت أحدّق فى هذه البادية ، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوى الأرض طياً ؛ وأراها تاهث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعد فى أماكننا . ولست غريباً عن البوادى ، فقد عرفتها فى رحلتنا تلك . . . إلى مكة . وبقيت فيها سبعة عشر يوماً . ما من ساعة منها إلا وهى أشدّ من عشرة أسفار إلى بغداد ؛ ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة العرب ؛ ففى الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما فى هذه إلا شىء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد إلى الأفق ، كأنها بحر ليس فيه ماء ! فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا ، فتقطع الصحراء بصمتها وجلالها حديثنا ، وكنا ننام ونفيق والصحراء هى هى ... حتى قطعنا يوماً كاملاً ، وكان صباح اليوم التالى ، (وللصباح فى البادية جمال وروعة ، لا يكون مثلهما فى المدن) وبدّدت الشمس

ظلمة الليل ، فتبدَّدت من نفسي ظلمة الكآبة والحزن ، وانزاحت عني نوبة المرض ، (وما العاطفة الرقيقة المؤنثة إلا مرض في الرجال ...) فصحوت ، ونظرت في أمري فاذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدي . وهل بغداد الاداري وبلدي وفيها أهلي وإخوتي ، إن لم تقرر هـذه الأخوّة الأنظمةُ ولم تسجّل في الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع سمواته وسجّلها في القرآن : « إنما المؤمنون إخوة » . وليس ينقض ما أبرم الله ، وإن فرقت بيننا شارات على الأرض ، وألوان على الصور ، فلقد جمع بيننا الدين واللغة والعادات ، وألّف بيننا تاريخ الماضي ، وأمل المستقبل وألم الحاضر ، ووحّد بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة . فأنى ننكر هذه الأخوة وشاهدها فينا ، ودمها في عروقنا ؟

وكيف أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة ، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من الأخبار والتواريخ والأشعار

وبغداد عاصمة الاسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر الذهبي الاسلامي ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون . . .

فدى لك يا بغـداد كل قبيلة	من الأرض (إلا) خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها	وسيّرت رحلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغـداد منزلاً	ولم أر فيها مثل دجـلة واديا
ولا مثـل أهليها أرقّ شمائلاً	وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

***

وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة ، في سيارة متينة ، ونمل من طولها ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلا في الساعة ، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء المثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق نمنا أربع عشرة ساعة ، لنستريح ونسترد الروح فأفكر في أجدادنا أي ناس كانوا ؟ ... وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الابل ، يخوضون لجة الرمل الملتهب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتبلّغون من الطعام بتمرة ، ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر منهم عَدداً وعُدداً ، فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ... فأقول : هذا هو فرق ما بيننا وبين أجدادنا ؛ هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة ، فتقطع يده من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذيه وتعيقه عن القتال ، فيعمد الى أصابع يده المقطوعة ، فيدوس عليها بقدمه ، ثم يتمطى حتى يبترها ، ثم يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هولها ، فيخطر في الشارع كالعروس ليلة الزفاف ، وإذا شاكته شوكة أو لفحته الشمس أوى الى الفراش !

***

ولما كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل الليل ، فعرفت لماذا سمى العرب السواد سواداً ، وذهبت أتذكر الفتوح وعهدي بمطالعتها قريب — فأحسّ بأني أسمو عن زماني وأعيش في أيام الصدر الأول — وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعطيلهم التاريخ الاسلامي في مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه ، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بث روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب ، ولأنه شمس إذا طلعت كسفت هذه الأنوار الكهربائية التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم فبدت تواريخهم سوداء مظلمة . . . وبدا وحده الشرق المنير

وجعلت أتشوّق الى بغداد — وأعرض في ذاكرتي صوراً منها حلوة ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور بأسوارها المستديرة وأبوابها الفخمة — وألمح قبّتها الخضراء العالية المشمخرة ، الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضطرب صورتها في دجلة ، ثم أذكر ليلة الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٢٩ وقد كانت ليلة مطر ورعد هائل وسيل شديد ، فهوت هذه القبة التي كانت تاج بغداد — وعَلَم البلد ، ومأثرة من مآثر بني العباس عظيمة ، بنيت أول ملكهم وبقيت الى آخر أيام الواثق ، فكان بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة

وأرى دار الخلافة — وقد قدم رسل ملك الروم على المقتدر ، فرسم أن يطاف بهم في الدار ، وليس فيها من العسكر أحد ألبتة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان ، سبعة آلاف خادم ، وسبعمائة حاجب ، وأربعة آلاف غلام — قد جعلوا على السطوح والعلالي وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس ، وقد علقت الستور ، ونظم الجوهر وصف على درج غشيت بالديباج الأسود ، وكان عدد ما علق في قصور المقتدر من الستور الديباج المذهبة المصوّرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع .. ثمانية وثلاثين ألف ستر ، وعدد البسط في الممرات والصحون التي وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم سوى ما في المقاصير والمجالس

من الأنماط اثنان وعشرون ألف قطعة . وأدخل الرسل من دهاليز باب العامة الأعظم الى الدار المعروفة بخان الخليل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يدى شاكرى بالبزة الجليلة ؛ ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت من الحير قطعان تقرب من الناس ، وتتشمم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع فى يد سباع وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد ؛ ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث ، وهى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص ، حواليها نهر رصاص أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مزينة بالديبقى المطرز ، وأغشيتها ديبقى مذهب ، وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيه نخل ، عددها أربعمائة نخلة ، طول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجا منقوشاً من أصلها الى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة . . . ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة ، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، والشجرة ثمانية عشر غصناً ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . . . الى أن أدخلوا الى الخليفة

وملأ نفسى الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التى كانت وحدها دنيا ، كان فيها ستون ألف حمام ، فلو أن فى كل حمام خمسة نفر حمامى وقيم وزبال ووقاد وسقاء وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلثمائة ألف رجل ، وكان حيال كل حمام خمسة مساجد ، فلو أن فى كل مسجد خمسة أشخاص ، لكان ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف انسان . وأحصيت الزوارق التى فى دجلة أيام الناصر فكانت ثلاثين ألفاً [١]

(١) تاريخ بغداد

قال الخطيب : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير ، فى جلال قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدة سكانها »

وبعد فهأنذا على (جسر بغداد[١]) فى نشوة من خمرة الذكرى أذكر ما لا سبيل إلى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة على وصفه ، وقد قال أبو الوليد : قال لى شعبة : أرأيت بغداد ؟ قلت : لا . قال : فكأنك لم تر الدنيا . أما أنا فقد رأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا ؛ لا أقول إنه أعظم من جسر إسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن لجسر بغداد سراً آخر ، يعرفه كل من نظر فى كتب الأدب والتاريخ وقرأ عن جسر بغداد ... هذا الذى جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ، والشعراء والماجنون ؛ هذا الذى وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشافعى ، والفضل وابن دينار ، ومطيع وأبو نواس ، وعبد الله بن طاهر ويزيد بن مزيد ، وشهد جلال الخلافة ، وعظمة الملك ، وروعة الزهد ، وضحك المجون ، وقوة الجيش .... وجرى عليه نهر التاريخ . . . وتداعت على جوانبه القرون .... هذا الذى كان سرة الأرض !

* * *

أيا حبذا جسر على متن دجلة	باتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهة	وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جئته متأملاً	كسطر عبير خط فى وسط مهرق
أو العاج فيه الآبنوس مرقش	مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إننى إن أحببت مصر لأن منها أصلى ، وأحببت الشام لأن فيها مولدى ، فانى أحب العراق لأن فيها أجل ذكر الماضى ، وأحب الحجاز لأن اليها قبلتى ، وأحب كل بلد يقول أهله : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لأنه بلدى ، وأهله أهلى

(بغداد) علي الطنطاوى

(١) كان المنصور قد أمر بعقد ثلاثة جسور أحدها للنساء ، ثم عقد لنفسه ولحشمه جسرين ، وكان بالزندورد جسران عقدهما محمد ، وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية جسرين ، فلم تزل هذه الجسور إلى أن قتل محمد ، ثم عطلت وبقى منها ثلاثة إلى أيام المأمون ، ثم عطل واحد ، فصار هنالك جسران يمضى الناس على أحدهما ، ويرجعون على الآخر ، وهما اليوم جسران